من البلاغة العربية القديمة إلى الأسلوبية الحديثة

From ancient Arabic rhetoric to modern stylistics

مريم هدّي[1]*

[2]أ.د فاطمة صغير

[1] جامعة أبو بكر بلقايد –تلمسان– (الجزائر)، البريد الإلكتروني: meriemheddi9@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/25 تاريخ القبول: 2021/05/10 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص:

تحتلّ البلاغة مكانة مرموقة في التاريخ اللّغوي والأدبي القديمين، لكونها تعدّ وسيلة إقناع يتبارى فيها الخطباء والشعراء في كلّ ناد. لقد نشأ البحث البلاغي عند العرب بعد نزول القرآن الكريم، وكانت نشأته تسير إلى اللغة العربية ويتطور بتطورها عبر القرون. أمّا الأسلوبية فهي مصطلح حديث ظهر خلال القرن 19م، وهي فرع من اللّسانيات تدرس الخصائص الفردية في الكلام. ولهذا تكون الأسلوبية وصفية تقييمية تحاول الالتزام بالموضوعيّة منطلقة من تحليل الظواهر اللغوية والبلاغية للنص.

يهدف هذا البحث إلى تتبع مراحل تطور كلا من البلاغة والأسلوبية عبر محطات مهمة تسهل على الباحثين مهمة البحث. أما النتائج المتوخاة من هذا البحث فهي الوقوف على كل التطورات التي عرفتها كل من البلاغة والأسلوبية، وأهم الأعلام الذين ساهموا في هذا التطور.

والسؤال المطروح هو: كيف تبلور الدّرس البلاغي والأسلوبي عبر الزّمن؟

كلمات مفتاحية: الأسلوبية.، الكلم.،اللسانيات.، الأدب.، البلاغة.

Abstract:

Rhetorical research arose among the Arabs after the revelation of the Noble Qur'an, and its inception was moving to the Arabic language and developing it over the centuries. Stylistics is a modern term that emerged

* المؤلف المرسل: مريم هدّي

during the nineteenth century AD, and it is a branch of linguistics that studies the individual characteristics of speech. This is why stylistics is evaluative and descriptive that tries to adhere to objectivity, starting from the analysis of the linguistic and rhetorical phenomena of the text.

This research aims to follow the stages of the evolution of both rhetoric and stylistic stations across the task of facilitating the task of searching researchers. As for the intended results of this research, it is an examination of all the developments that both rhetoric and stylistics have known, and the most important figures who contributed to this developmental means in argumentation used by poets and talkers. The rhetoric research for the Arabs has being born after the coming out of the holy quranK within the other Arabic sciences related to the Arabic language and its growth through cinturies.

The question is: how did the rhetorical and stylistic lesson crystallize over time?

Keywords: Stylistics; Speech; Linguistics; Literature; Rhetoric.

1. مقدمة:

كانت البلاغة العربية قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من حالة الثّبات والاستقرار قد مرّت بفترة زمنية طويلة استغرقت قرونا عدّة مرت خلالها البلاغة بثلاث مراحل مهمّة: الأولى: مرحلة النشأة بمصاحبة العلوم الأخرى، ثمّ مرحلة تكامله مع هذه العلوم، والمرحلة الأخيرة التي تفرّد فيها علم البلاغة واستقر مع العلوم الأخرى.

أمّا الأسلوبية فلم تظهر إلّا في بداية القرن العشرين مع ظهور الدّراسات اللّسانية الحديثة، وخطت الأسلوبية خطوات نوعية بتفاعلها مع مناهج البحث المعاصرة والعلوم اللّسانية عامّة. لذلك كان لابدّ من مسح شامل لمراحل تطوّر العلمين وخاصّة بعد إثبات الصّلة الوثيقة بينهما، حتى عدّت الأسلوبية وريثا شرعيا للبلاغة. فما هي أهّم المحطّات والمراحل التي مرّ بها كل من علم البلاغة والأسلوبية؟

فجاء هذا البحث ليجيب عن هذه الإشكالية من خلال مبحثين شاملين الأوّل: حول تاريخ البلاغة، والثاني: حول تاريخ الأسلوبية، من أجل الوقوف على أهمّ التّطورات التي عرفها كل من العلمين اللغويين البلاغة والأسلوبية.

2.تاريخ علم البلاغة:

كانت الحياة الأدبية في العصر الجاهلي في ائتلاف واحد، إذ لم تكن العلوم متفرقة عن بعضها البعض، إنّما كانت السّجالات الأدبية، وأسواق التباري بين الشّعراء هي الوجه الذي يمثّل الأدب والأدباء آنذاك، وكان للبلاغة روادها على اختلاف طوائفهم، وتنوع مناهجهم، وقد بلغ العرب في الجاهلية منزلة عالية في تمييز الألفاظ والقدرة الفائقة على حبك كلّ أنواع الخطاب.

وقد صوّر الذّكر الحكيم بلاغة العرب وبيانهم في غير ما موضع من القرآن الكريم، كنحو قوله تعالى:﴿**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَان** ﴾سورة الرحمن الآية 1-2-3-4.

كما صوّر شدّة عارضتهم وقوّتهم في الحجاج والجدل بمثل: ﴿**فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْه مِنَ المَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ**﴾ سورة الأحزاب الآية 19.

ومن الأدلّة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول ـ صلّى الله عليه وسلم ـ وحجّته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة، وهي دعوة تدلّ على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبيّن ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير. (ضيف، د.ت، صفحة 9)

ويروى أنّ الوليد ابن المغيرة أحد خصوم الرسول صلى الله عليه وسلّم ـ الألدّاء استمع إليه وهو يتلو آي القرآن، فقال:« والله لقد سمعت من محمّد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدِق» .حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري.

ففي كلام الوليد ما يظهر لنا على أنّهم كانوا يُعربون عن إعجابهم ببلاغة القول في تصاوير بيانية. (ضيف، د.ت، صفحة 9)

وكلام الوليد ابن المغيرة يعبّر عن بلاغة القرآن، وأنّه ليس من كلام البشر، فهو أعلى، وأبلغ، وأجمع من كلّ كلام، ولهذا شهد له الأعداء بهذه الشهادة التي تضمّنت هذه الحقيقة.

كما وقف الجاحظ في بيانه على اهتمام شعراء العصر الجاهلي بقصائدهم وعنايتهم بها، وأوضح أنّ «من شعرائهم من كان يَدعُ القصيدة تمكث عنده حولا كاملا وزمنا طويلا يردّد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله ويُقلّب فيها رأيه، اتّهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، وكانوا يسمّون تلك القصائد الحوليّات والمقلدّات والمنقّحات والمحكمات، ليصير قائلها فعلا شاعرا مُفلِقًا». (الجاحظ، د.ت، صفحة 9)

بل أعطى العرب لشعرائهم أسماء وألقابا تدلّ على مدى إحسانهم في رأيهم مثل المهَلْهِل والمرقّش والمثقّب والمنخّل والأفوه والنابغة، وخاصّة سوق عكاظ بجوار مكة، إذ كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها، وكلّ يريد أن يحوز قَصَبَ السّبق لدى سامعيه دون أقرانه. (ضيف، د.ت، صفحة 111)

كما كان الملوك والأمراء يقرّبون الشعراء من مجالسهم ويغدقون عليهم الأموال ويقبلون شفاعتهم ويُعلوهم في الرّتب، وكانت هذه إحدى طرق الشعراء للتكسّب.

لقد أحلّ العرب لغتهم من حياتهم المحلّ الأوّل، فالعربي في نظرهم لا يكون كاملا ما لم يبلغ من لسانه الغاية، وهو بلغته تلك الرّفيعة البليغة يبلغ بقومه أو عشيرته مبلغا عظيما بين القائل والعشائر، ولذلك كانوا إذا نبغ منهم شاعر أو خطيب أولموا له واحتفوا به وجعلوه عيدا لهم وفخرا. (المبارك، د.ت، صفحة 23)

كان حبّ البلاغة طبعا في العرب كافة في العصر الجاهلي، إنّه أقرب إلى أن يكون غريزة أو فطرة فُطروا عليها، وهو أعمق وأهمّ من أن يكون صفة لطائفة معيّنة منهم، بل شاع فيهم حتى شمل عامّتهم، وتساوى في ذلك النساء والأطفال، وما أكثر ما روي عن نسائهم وأطفالهم من أقوال وأجوبة بلغت من البلاغة مبلغا جعلها تسير حتى يومنا هذا مسير المثل والحكمة. (المبارك، د.ت، صفحة 24)

إنّ أهمّ ميزة في بلاغة العرب إبّان العصر الجاهلي حرصهم على الإيجاز، فيحذفون كلّ ما يمكنهم حذفه من حرف أو كلمة أو جملة أو جمل إذا كان الكلام مفهوما بدونها وظهر الدليل عليها، فتصبح العبارة مركّزة في معانيها مشعة بدلالتها وإيحاءاتها، لذلك عرّفت البلاغة فيما بعد بالإيجاز.

وهم حين يفعلون ذلك لا يفعلونه عن تكلّف، وإنّما يأنسون إلى طبيعتهم في الاختصار، ويشيرون إلى المعنى إشارة معبّرة موحية تغني عن الكلام الطويل الذي لا يحمل في طياته معنى جديدا. (حسين، 2001، صفحة 7)

لم تكن مسألة الإيجاز وحدها محطّ اهتمام العرب في ذلك العصر بل كانت أشعارهم تزخر بالصفات البلاغية الأخرى كالتشبيه والاستعارة والكناية والمحسنات البديعية المختلفة. لقد كان الشّعر عندهم دستورهم المعظّم حيث أبدعوا فيه حتى غدا عملا فنّيًا بألفاظه المنتقاة ومعانيه المعبّرة وصوره البديعية..،حتى غدا الشعر عند النحاة في عصر التأليف المصدر الأول لاستنباط القواعد النحوية.

وينبغي أن نقف قليلا عند مدرسة زهير بن أبي سلمى، وهي مدرسة كانت تجمع إلى الشّعر روايته،وتبدأ بأوس بن حجر التميمي الذي تلقن عنه الشّعر زهير المزَني، ولقّنه بدوره لابنه كعب وللحُطيئة، ولقّنه الحُطيئة هَدبة بن الحشرم العذري، ولقّنه هذبة جميلَ بن معمر، وعنه تلقّنه كثير، وهي مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشّعر عَفْوَ الخاطر، بل كانت تتأنّى فيما تنظم منه،وتنظر فيه وتعيد النظر مهذبة منقّحة، وكذلك كلّ من جوّد في جميع شعره ووقف عند كلّ بيت قاله وأعاد فيه النّظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلّها مستوية في الجودة. (ضيف، د.ت، صفحة 12)

ويختم شوقي ضيف حديثه عن بلاغة العرب في العصر الجاهلي ومدى تميّزهم في ذلك بقوله:«كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصّور، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب في أنّها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية، ومن يتصفّح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات، ممّا يدلّ دلالة واضحة على أنّهم كانوا يُعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنّن في معارضه البليغة». (ضيف، د.ت، صفحة 13)

لقد كان ذلك كلّه في العصر الجاهلي، ولما أرسل الله رسوله الكريم ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أيّده بكتاب معجزٍ كان له أثر عظيم في نشأة البلاغة العربية، وكان الرسول الأمين يتّصف بصفات جليلة أهمّها فصاحته وحسن بيانه، كيف لا وهو القائل عن نفسه «أنا أفصح العرب بَيْد أنّي من قريش». وكان القرآن الكريم مصدرا عظيما لنشأة البلاغة العربية، فقد جاء بلغة قريش، بل تحدّى قريشا بأسرها بأن تأتي ولو بسورة من مثله.

وكان العرب المسلمون الذين أدركوا فجر الدعوة الإسلامية، وعاشوا في عصرها الأوّل يُدركون بفطرتهم اللّغويّة الصّافية عناصر هذا الإعجاز البياني ومقوّماته، دون حاجة إلى تعيينها بأسمائها الاصطلاحية، بل دون أن يستشعروا هذه الحاجة قط، كذلك كانت نصوص القرآن ميسورة الفهم قريبة التناول عندهم لجريانها على ما ألفته أسماعهم وألسنتهم من أساليب القول وفنون التّعبير، أو لقربهم من صاحب الرّسالة ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فكان إذا أشكل عليهم تعبير هرعوا إليه يستفتونه. (السيد، د.ت، صفحة 14)

لقد انفرد البيان النبوي عن غيره لأسباب فطرية فيه، فهو منحدر من قبيلة عربية عريقة، إضافة إلى أنّه كان مقدر له أن يكون حاملا لرسالة الله في أرضه وخاتم أنبيائه ورسله.

وقد رُوي أنّ رجلا أتى إلى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى:﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ سورة الأنبياء، الآية 30.

فقال: اذهب إلى ابن عباس، ثم تعال أخبرني! فذهب فسأله، فقال« كانت السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات»، فرجع الرجل إلى ابن عمر، فأخبره بجواب ابن عباس، فقال: قد كنت أقول: ما تعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنّه أوتي علما. (الزرقاني، 1372هـ، الصفحات 483-484)

إنّ القرآن الكريم بتوجيهه، وحكمه، وآياته، قد وجّه الشّعراء إلى بناء الفرد والجماعة، والاهتمام بالبلاغة القرآنية الّتي تنمّ عن الحق، والعدل، والصّدق، في إطار الشّريعة الإسلامية، وكان الرسول الكريم ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أفصح العرب قاطبة، وفصاحته التي هي بلاغته، ليست في أيّ اتّجاه من مناشط

الحياة، بل هي في دائرة القرآن الكريم، ومع هذا فإنّ معاني بلاغة الرسول الكريم بإلهام من الله تعالى، وإيحاء صحيح سليم. (بركات، 1991، صفحة 17)

ومن أحسن ما ذكره ابن رشيق (ت 456هـ) في كتابه العمدة حول رأي النبي. صلّى الله عليه وسلّم. بشأن البلاغة أنّ رجلا تكلّم عند النبي. صلّى الله عليه وسلّم. فقال له النبي- صلّى الله عليه وسلم-:«كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له: إنّ الله يكره الانبعاق في الكلام، فَنَضَّر الله وجه رجلٍ أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته». (شعلان، 1420هـ-2000م، صفحة 382)

ومن هنا حكم الرسول. صلّى الله عليه وسلّم. على حسن الكلام وبلاغته بالإيجاز والقصد دون مراوغة أو توسّع وتكثّر لا طائل منه.

وفي هذه الفترة المميّزة من صدر الإسلام أخذت البلاغة تنمو شيئا فشيئا بفضل عناية المسلمين بحسن الكلام واختيار ألفاظ تناسب الوضع الجديد للعرب بعد اعتناقهم الإسلام واتّخاذهم القرآن الكريم نهجا لهم، لقد شعر العلماء بواجبهم نحو القرآن فانصرفوا يؤلّفون في مجازه، ومعانيه، ولغته وغريبه، ووجوه إعجازه، وانكبّوا على دراسته بما يملكون من مواهبَ وطاقاتٍ عقليّة ونفسية وبما وسعته علومهم، فكانت لنا في علوم التفسير والفقه والقراءات وعلوم النحو والبلاغة مجموعة كبيرة من المصنّفات. (المبارك، د.ت، صفحة 37)

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم خطباء مفوّهين، وكانوا يستضيئون في خطاباتهم بخطابة الرسول الكريم وآيِ الذّكر الحكيم،وربّما كان ممّا يدلّ على شيوع دقّة الحسّ حينئذ ما يُروى عن أبي بكر من أنّه عرض لرجل معه ثوبٌ، فقال له:« أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا، عافاك الله، وتأدّى أبو بكر ممّا يوهمه ظاهر اللّفظ، إذ قد يُظنّ أنّ النّفي مسلّط على الدعاء، فقال له:"لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قُل: لا وعافاك الله»، ويضرب الرواة مثلا لبلاغة عمر أنّه كان يستطيع أن يُخرج الضاد من أي شدقيه شاء، وكان عليٌّ لا يبارى فصاحة وبلاغة. (ضيف، د.ت، صفحة 14)

لقد ظهرت ألوان عديدة من الفنون الأدبية التي اشتهرت في العصر الإسلامي، فوجدت الخطابة الدينية واتّجه الشعراء إلى أغراض جديدة من الشعر تدافع عن الدين الجديد وتظهر محاسنه. فأصبح الشعر من أقوى الأسلحة القولية التي ترد على أعداء الدين. ثم ظهر على إثر هذا التغير ما سمي بشعر الجهاد والفتوحات والشعر السياسي وغيرها من الأغراض.

وتظلّ البلاغة متماسكةً عبر العصور كتلك الشجرة الطيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء تأتي أكلها كلّ حين.

ثمَّ في العصر الأموي وبظهور الأحزاب السياسيّة والفرق الكلامية المختلفة الّتي كان لها أدبها، وفكرها الخاصّ بها، وغير ذلك من الطوائف التي كانت وراء الشعر والنثر في هذه المرحلة، ومن صور هذا البيان ما كان في مجلس عبد الملك بن مروان (86هـ) من مطارحات شعرية، وفكاهات أدبية، وما دار في مجالس خاصّة، كلّ ذلك يصوّر تراكم مفردات البلاغة العربية. (بركات، 1991، صفحة 17)

وخير ما يستدلّ به الدّارسون لعلم البلاغة، في العصر الأموي قول الخليفة عبد الملك بن مروان للشّعراء، تشبهونني مرّة بالأسد، ومرّة بالبازي، ومرّة بالصّقر، ألا قلتم كما قال كعب الأشعري:

مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... إِذَا مَا الهَامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طَارَا

رَزَانٌ فِي الأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِمْ ... مِنَ الشِّيَمِ الشَّمَائِلُ وَالنَّجَارَا

نُجُمٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا ... أَخُو الظُّلْمَاءِ فِي الغَمَرَاتِ طَارَا

وهذا يُظهر التّصور البلاغي لدى الخليفة الأموي، في توجيه كلامه للشعراء إذ يلتزمون في شعرهم صورًا مكررة، لا تجديد فيها ولا تنوع، وتلك دعوة إلى بناء الشّعر على وجهات أخرى تتمثّل فيها حياة البلاغة في غير جمود أو توقف، وهذا جميعه حتّى نبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر العبارة في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه. (علي، 1403هـ- 1983م، الصفحات 17-18)

وبعد انتشار الإسلام وتوسّع رقعة الفتوحات، دخل النّاس إلى الدين الجديد زمرًا زمرًا، واختلطت الأجناس بالجنس العربي، واحتكّ المسلمون بغيرهم من الأمم كالفرس والهند وغيرهم، (فتنوّعت روافد الفكر من ترجمات ونقولات، وغير ذلك ممّا كان يشكّل الفكر في العصر العباسي، من اتّجاهات أدبية، أو

فلسفية، أو عقدية، أثرت هذه الروافد في تبعة البلاغة العربية، في مجال الأدب والنقد والبلاغة). (علي، 1403هـ- 1983م، صفحة 19)

وأبرز الاتّجاهات البلاغية العربية في العصر العباسي، كانت تتمثّل في:

1. اتجاه الأدباء والنقاد والكتاب والرواة.
2. اتجاه النحويين واللّغويين.
3. اتجاه دراسات الإعجاز القرآني.
4. اتجاه الدّراسات الفلسفية البلاغية.

وكلّ واحد من هذه الاتّجاهات، كان يمثّل لونا بلاغيا يُنضاف إلى غيره. (علي، 1403هـ- 1983م، الصفحات 19-20)

والدّراسات البلاغية هي مبتغانا في هذا العصر الذهبي الذي تطور فيه الشعر والنثر تطورا ملحوظا بفضل الكثير من الموالي وبعض الفرس الذين أتقنوا العربية وبرعوا فيها.

ونستطيع أن ننظر في النثر فسنراه يتطوّر تطوّرا رائعا، إذ نشأ فيه النثر العلمي الخالص، واستوعب آثارا أجنبية كثيرة نُقلت إليه، منها الأدبي، ومنها السياسي، ومنها الفلسفي. (ضيف، د.ت، صفحة 19)

وقد لا يبدو اتّجاه الأدبيين واللّغويين غريبا عن البلاغة، فالدّرس البلاغي في حدّ ذاته علم أدبي ولغوي، يتعامل مع الإبداع الأدبي والبناء اللغوي بشكل طبيعي وسَلِسٍ، أمّا عن اتّجاه الدّراسات القرآنية فقد أخذ بنصيب الأسد من الدراسة البلاغية لكون قضية الإعجاز كانت بداية كل الدّراسات البلاغية منذ نشأتها.

ولعلّ أبرز مظاهر تأثير العلوم الأدبية في تلك المرحلة من مراحل حياة البلاغة العربية يتمثّل في موسوعة الجاحظ " البيان والتبيين " هذه الموسوعة الّتي ضمّنها الجاحظ الكثير من الفنون الأدبية والتي اختلط فيها النقد بالأدب بالبلاغة على نحو يعكس طبيعة التأليف العلمي في تلك المرحلة، وقد احتوى الكتاب على مجموعة من أهمّ الأصول البلاغية الأولى الّتي قامت عليها دعائم علم البلاغة فيما بعد، والّتي

جعلت مؤرّخي البلاغة يعتبرون الجاحظ واحدا من الآباء الشرعيين الأوّل لعلم البلاغة، على الرّغم من أنّ الكتاب لا يشتمل على نظرية علمية متكاملة، أو حتى على قضايا بلاغية محدّدة، وإنّما هي أفكار بلاغية متناثرة، كانت هي البذور الّتي نمّاها البلاغيّون فيما بعد، والأصول الأولى التي شادوا عليها صرح البلاغة العربية. (زايد، 1982م، الصفحات 18-19)

وتعدّ المؤلّفات الكثيرة والضخمة الّتي ألّفت في هذا العصر شاهدُ عيَانٍ على مدى براعة الكتّاب والأدباء في البلاغة العربية وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ابن المقفع (ت 143هـ) الذي ترجم كتبا تاريخية مختلفة عن اللّغة الفارسية، وأخرى في الأدب والسياسة، لنصل بالبلاغة العربية إلى عصر النضج والازدهار على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) صاحب الفكر النافذ والعلم الواسع والذوق المرهف، وصاحب أعظم مؤلّفين (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

وأبرز ما يتّصف به بحث الجرجاني في البلاغة أنّه بحثٌ يجمع بين سعة العلم، وبعد النّظر، وسداد الرأي، ورهافة الذوق، وهي صفات تظهر في حسن استثماره لعلم النّحو، وبراعة تطبيقه لقوانينه في نظم الكلام تطبيقا يشهد له بالذكاء، كما تظهر في تحليله لأمثلة من القرآن الكريم والشّعر، تحليلا يجتمع فيه العقل والذوق، ويستعين فيه الحسّ بالعلم، بل إنّ الجرجاني يرى أنّ الذوق شرط لإدراك ما يريد من جوانب البلاغة، وأنّ من لم يُؤت الذوق فلن يكشف عن بصره حجاب التفاضل بين جيّد الكلام ورديئه، ولن يدرك أسرار الجمال في نظم الكلام. (المبارك، د.ت، صفحة 95)

وكان لابدّ بعد جهود عبد القاهر الجرجاني أن تتحوّل البلاغة إلى علم له قوانينه وأصوله، وقد أدرك العديد من الدارسين أهمّية هذا الرجل ومنزلته الرّفيعة فأشادوا به وأثنوا عليه في كثير من مؤلّفاتهم. يقول عبد القادر حسين في مختصره عن تاريخ البلاغة:«وفي الحقيقة لم نجد بعد عبد القاهر الجرجاني من يسير على نهجه ويترسّم خطاه في تكوين الذوق الأدبي والبلاغي غير الزمخشري (ت538هـ) صاحب التفسير المعروف بالكشاف، فقد طبق فيه آراء عبد القاهر المتعلّقة بالمعاني والبيان تطبيقا نموذجيا، محلّلا مستقصيا حتى أوفى على الغاية، ولم يترك من أساليب البلاغة الفنية بابا إلاّ ولجه وأدلى فيه بسهم». (حسين، 2001، صفحة 185)

في بداية القرن السابع الهجري عرفت البلاغة العربية منعرجا آخر من الدراسة، إذ كان لابدّ من تقنينها وتقعيدها وتقسيم أركانها الثلاث: البديع، البيان والمعاني، فكان هذا التوجّه الجديد على يد يعقوب السكاكي (ت 626هـ) بمؤلفه "مفتاح العلوم".

وقد هدت السكاكي عقليته المنطقية المنظمة إلى محاولة تقنين البلاغة العربية وتبويبها، وإخضاعها للتقعيد. (زايد، 1982م، صفحة 140)

ورتّب السّكاكي علوم البلاغة وفق ثلاثة أقسام كبرى،فبدأ بعلم المعاني ثم البيان وأخيرا المحسنات البديعية، وذلك في الجزء الثالث من كتابه " المفتاح " مستعينا في ذلك بعلم المنطق وما تركه المتكلمون والأصوليون من آثار. وبعد السكاكي تولى زمام الكتابة في البلاغة العربية كتاب وأدباء انحرفوا عن مسار أسلافهم،وكان إنتاجهم الأدبي يقتصر على مجرّد التلخيص أو الشرح فظهرت بذلك كتب التلخيص أو الشروحات.

وبعيدا عن البيئة العربية كانت اليونان المنبث الأصلي للبلاغة، ويُعدّ أرسطو المؤسّس الحقيقي للبلاغة ومنطق القيم، وقد سبق عصره بآرائه البلاغية الرّائدة في مجال الحجاج والاقتناع. وقد ألّف ثلاثة كتب في البلاغة وهي (فنّ الشّعر) وَ (فنّ الخطابة) وَ(الحجج المشتركة)، وهو يعتبر البلاغة فنّا خطابيا بامتياز. (حمداوي، 2015م، صفحة 6)

وتمتدّ البلاغة أو إمبراطورية البلاغة كما سمّاها الفيلسوف الألماني " والترجينز" **walter jens**لتصبح ملكة العلوم الإنسانية قديما وحديثا.

لقد أصبحت البلاغة في قرننا هذا مدخلا أساسيا إلى جميع المجالات العلمية والمعرفية والثقافية والأدبية والفنية، بعد أن تعدّدت المعارف الإنسانية، وكثرت التخصصات العلميّة، وتداخلت العلوم فيما بينها، بيد أنّها تنطلق من منبع واحد هو البلاغة. (حمداوي، 2015م، صفحة 35)

وخير ما نختم به هذا الحديث عن البلاغة قول حازم القرطاجي فيمن ظنّ أنّ تحصيل علم البلاغة أمر هيّن إذ يقول:« وكيف يظنّ إنسان أنّ صناعة البلاغة يتأتّى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر

الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها ! وإنّما يبلغ الإنسان منها ما في قوته أن يبلغه». (القرطاجني، 1986م، صفحة 88)

وكان حازم القرطاجي قد شبّه حال من يظن إمكان تحصيل البلاغة والاستفادة منها في وقت وجيز، بحال الرجل الذي قضى ليلته في تصفح كتب الطب، ثمّ أصبح وهو يحرّر وصفة طبية لإسعاف صديقه المريض فعجّل بنهايته. (العمري، د.ت، صفحة 5)

إنّ البلاغة علم كلّي، يحتاج ضبطه الإحاطة بعلوم اللسان والعلوم الإنسانية المختلفة الّتي مازال منها يسترشد بآليات البلاغة في خطاباتها المعرفية المختلفة سواء في الجانب النظري أو الجانب التطبيقي.

4. خاتمة:

نخلص في نهاية هذا البحث إلى أن البلاغة قد مرت بمراحل عديدة منذ العصر الجاهلي حتى عصر التأليف حتى صار الدرس البلاغي قائما بذاته، وكذلك الأسلوبية مرت هي الأخرى بمحطات كثيرة حتى تشكل الدرس الأسلوبي الحديث على يد مجموعة من العلماء لعل أبرزهم شارل بالي مؤسس الأسلوبية الحديثة.

4-1 النتائج:

يشكل الدرس البلاغي العربي القديم دعامة أساسية في الموروث اللّغوي والأدبي. كما أنّ البلاغة بدأت فطرة سليمة عند العرب وانتهت إلى علم قائم بذاته. أمّا الأسلوبية فهي منهج نقدي حديث تطورت بتطور علم اللغة، تقوم بدراسة الأسلوب، وتحتاج إلى المزيد من الجهد لتستقر علما مكتملا في الدرس اللغوي.

4-2 الاقتراحات:

بناء على النتائج السابقة نقدم الاقتراحات التالية:

- ضرورة الاهتمام بالتراث اللغوي العربي القديم، فهو مصدر مهم للباحثين وطلبة العلم.
- العلماء العرب القدامى بذلوا جهودا كبيرة من أجل دراسة العلوم المختلفة، لذلك ينبغي عدم إغفال القديم عند دراسة الجديد فليس هناك علم جاء من العدم، بل الجديد يتكئ على القديم وهكذا.

هوامش البحث:

الجاحظ) .د.ت .(البيان والتّبيين .ج.9 , *1*

الزرقاني1372) .هـ .(مناهل العرفان في علوم القرآن .*دار إحياء الكتب العربية، ج*.484-483 , *1*

السيد ,ش) .د.ت .(البحث البلاغي عند العرب -تقييم وتأصيل .-*دار الفكر العربي، القاهرة* .14 ,

العمري ,م) .د.ت .(البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص .*دار إفريقيا الشّرق* .5 ,

القرطاجني ,ح1986) .م .(منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح :محمد الحبيب ابن الخوجة .*دار الغرب الإسلامي، بيروت* .88 ,

المبارك ,م) .د.ت .(*الموجز في تاريخ البلاغة* .قطر :دار الفكر.

بركات ,. م .(1991) .البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل .*دار البشير، عمان* .17 ,

حسين ,ع .ا .(2001) .المختصر في تاريخ البلاغة .*دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع* .7 ,

حمداوي ,ج2015) .م .(اتجاهات الأسلوبية .*المغرب* .6 ,

زايد ,ع .ع1982) .م .(البلاغة العربية تاريخها -مصادرها ومناهجها .*مكتبة الشباب، القاهرة* .19-18 ,

شعلان ,ا .ر1420) .هـ2000-م .(العمدة في صناعة الشعر ونقده .*مكتبة الخانجي* .382 ,

ضيف ,ش) .د.ت .(البلاغة تطور وتاريخ .*دار المعارف* .9 ,

علي ,م .ب1403) .هـ1983 -م .(البلاغة عرض وتوجيه وتفسير .*دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان* -17 , 18.

5. قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. ابن رشيق، القيرواني(1420هـ-2000م)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي.
2. أحمد، حساني(1434هـ-2013م)، مباحث في اللسانيات، منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات.
3. الجاحظ(د.ت)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج1.
4. جميل، حمداوي(2015م)، اتجاهات الأسلوبية، المغرب.
5. جميل، حمداوي(د.ت)، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، المغرب.

6. حازم، القرطاجني(1986م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
7. الزرقاني(1372هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي، ج1.
8. شفيع، السيد(د.ت)، البحث البلاغي عند العرب . تقييم وتأصيل .، القاهرة، دار الفكر العربي.
9. شوقي، ضيف(د.ت)، البلاغة تطور وتاريخ، القاهرة، دار المعارف.
10. صلاح، فضل(1405هـ-1985م)، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،بيروت، دار الآفاق الجديدة.
11. عبد السلام، المسدي(1982م)، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب.
12. عبد القادر، حسين(2001)، المختصر في تاريخ البلاغة، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
13. عبد القادر، عبد الجليل(2000م)، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء للنشر والتوزيع.
14. علي، عشري زايد(1982م)، البلاغة العربية تاريخها، مصادرها ومناهجها، القاهرة، مكتبة الشياب.
15. مازن، المبارك(د.ت)، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، قطر.
16. محمد عياد، شكري(1413هـ-1992م) مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة.
17. محمد، بركات وحمدي، أبو علي(1403هـ-1983م)، البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع.
18. محمد، بركات(1991م)، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، عمان، دار البشير.
19. محمد، عباس(1999م)، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، بيروت-لبنان، دار الفكر المعاصر.
20. محمد، عبد الله جبر(1409هـ-1988م)، الأسلوب والنحو دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية، دار الدعوة.
21. محمد، عبد المطلب(1994م)، البلاغة والأسلوبية، القاهرة، دار نوبار للطباعة.
22. محمد، عبد المنعم خفاجي(1412هـ-1992م)، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية.
23. منذر، عياشي(2002م)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري.
24. موسى، ربابعة(2003م)، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، الأردن، دار الكندي للنشر والتوزيع.
25. يوسف، أبو العدوس(2007م)، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة.